

ملاحم الدرل اللغوي لءى عبد القاهر الجرءاني من ءلال ءتابيه ءلائل الإءءاز وأسرار البلاءة

Features of Abdul Qahir al-Jurjani's linguistic lesson through his books, "Dala'il al-I'jaz" and "Asrar al-Balagha"

أ.ء. بن يحيى ناعوس*

ءامعة غليلزان - الجزائر

Prof :Benyahia naous

University of relizane Algeria

Benyahia.naous@univ-relizane.dz

ءاريخ النشر: 2025/06/15

ءاريخ القبول: 2024/12/14

ءاريخ اسءلام المءال: 2024/10/17

ملءص

يعدّ عبد القاهر الجرءاني (471 هـ) علّماً بارزاً في التّراث اللغويّ العربيّ؛ فقد انماز بما أَلّف في علوم العربيّة ءالنجو والصرف والعروض والبلاءة والتفسير، والءي ميّزت العلماء في التراث العربي والإسلامي. ءما بينء مؤلفاءءه اءءهءاءاء علمية طريفة ومؤبّسة. والءق أن الءارسين

والباءئين قد اعءنوا بمؤلفاءء الجرءاني قءيما وءءيئا عناية فائقة، شرحا وتفسيرا وءءقيا وءءليلا ومراجعة ومقارنة، وعلى الرغم من هذا، بقيء الءاجة ملّءة إلى ضرورة العوءة إلى الجرءاني لئلّس ءوانب طريفة في إنءاءه، وعليه إعاءة قراءة تصوّراءءه في ضوء الأطاريج الءءيءة، فءراء الجرءاني ءراء ءءير بءءءيم عءيء من الأءوبة على الإشءالاءء الءي ءعيق ءطور البءء اللغوي العربي، ويفسء المءال لإعاءة النّظر في القراءاءء الءءيرة الءي قرأء ءراء الجرءاني في ضوء الاءاءاءاء الفكرية واللسانية المعاصرة. إن العوءة إلى التراث عموما، ومؤلفاءء الجرءاني على ءبه الءصوص، في هذا العصر المءسم بالءورة ءءنولوجية والرقمية، ليس ءمءيذاً ولا ضربا من اسءغراق الءّاء والانعلاق عليها، بل إنه مءءل من مءاءل بناء الءاضر، واسءشراف المسءقبل، وهو -أيضا- ضرورة معرفية لمراجعة قراءاء الباءئين لءراء الجرءاني، ومراجعةءه، لفهم أصول ءفكيره اللغويّ ومراجعةءه، ورصد امءءاءاءء هذا ءءفكير اللغوي في المعاصرين له واللاءقين بعءه فما هي منهجية الجرءاني الفكرية؟ وما هو السبيل العلمي القمين لقراءاءء وءراءاءء؟ ءلك هي الأسئلة الءي نوء الإءابة عنها وفق المنهج الوصفي ءءليلي.

الءلمات المفاءيئ: الجرءاني؛ اللغوي؛ التراث؛ الءرس اللغوي.

Abstract

Abdul Qaher Al-Jurjani (471 AH) is considered a prominent figure in the Arabic linguistic heritage; he was distinguished by what he wrote in the sciences of Arabic, such as grammar, morphology, prosody, rhetoric, and interpretation. He is one of the figures in the Arabic linguistic heritage that distinguished scholars in the Arab and Islamic heritage. His writings also showed novel and foundational scientific endeavors. In fact, scholars and researchers have paid great attention to Al-Jurjani's writings, both ancient and modern, in terms of explanation, interpretation, investigation, analysis, review, and comparison. Despite this, there remains an urgent need to return to Al-Jurjani to explore novel aspects of his production, and to re-read his concepts in light of new theses. Al-Jurjani's heritage is a valuable heritage and worthy of providing many answers to the problems that hinder the development of Arabic linguistic research, and opens the way to reconsidering the many readings that have read Al-Jurjani's heritage in light of contemporary intellectual and linguistic trends. Returning to heritage in general, and Al-Jurjani's writings in particular, in this era characterized by the technological and digital revolution, is neither glorification nor a form of self-absorption and self-isolation. Rather, it is an approach to building the present and anticipating the future. It is also a cognitive necessity to review and revise researchers' readings of Al-Jurjani's heritage, to understand the origins of his linguistic thinking and references, and to monitor the extensions of this linguistic thinking in his contemporaries and those who came after him. What is Al-Jurjani's intellectual methodology? What is the scientific path worthy of reading and studying him? These are the questions that we would like to answer according to the descriptive and analytical approach.

Keywords: Al-Jurjani; Linguistics; Heritage; Language lesson.

1. مقدمة

نزل القرآن الكريم بلغة أهل قريش، ورغم أنها لغة مفهومة لديهم إلا أنها أعجزت أهل الفصاحة وأساطين البلاغة منهم ومن غيرهم، لما فيها من تحديات واضحة جعلت القوم يقفون حيالها موقف العاجز المنهر، وجمهور أهل العلم بالقرآن الكريم على أن أقل قدر تُحْدِي به الثقلان هو السورة أيًا كان مقدارها الكمي، فسورة "الإخلاص" وسورة "البقرة" في التحديّ سيان، لقوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: 23]. وهذا كله وغيره جعلهم يهتمون بالبحث في أسرارها وسر بلاغتها، وعلى هذا الأساس يحاول هذا البحث تتبع نمو البلاغة العربية، باعتبارها عنصرا أساسيا من إعجاز القرآن الكريم، من خلال الدراسات القرآنية وخصوصا التي انكبت على تبيان سر الإعجاز في القرآن الذي أهر العرب بفصاحته وسحرهم ببيانه، مما جعل العلماء يهتمون، بذلك أمثال عبد القاهر الجرجاني الذي يحاول أن يجيب عن سؤال: ما سر أن لغة القرآن بهرت القوى والقدر من خلال كتابيه: أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز؟

فما علاقة هذين الكتابين بنمو البلاغة العربية؟

وأيّن يكمن تأثير دراسة لغة القرآن الكريم في خدمة البلاغة العربية؟

2. لغة القرآن الكريم

يوضح القرآن الكريم لنا في كثير من سوره أنه نزل بلسان عربي مبين ليتم الفهم والتدبر، والغوص في معانيه، والوقوف على مرامييه التي هي المقصد العام من نزوله حيث قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ٢﴾ [يوسف: 2]؛ فالقرآن الكريم عربي اللسان، ولن يُستطاع فهمه بعيداً عن هذا اللسان، ولأنه "نزل بلغة العرب وعلى أساليب بلاغتهم، فكانوا كلهم يفهمونه، ويعلمون معانيه في مفرداته وتراكيبه". (القطان، دت، ص326)

1.2. اللغة العربية

وهذه اللغة العربية تتحدث عن خصالها وتدافع عن نفسها من الهجمات المتكررة التي تتعرض لها من أبنائها قبل أعدائها، وفي هذا المقام يقول الشاعر [الطّويل] (إبراهيم، 1984)

رَجَعْتُ لِنَفْسِي فَأَهْمْتُ حَصَاتِي	وَنَادَيْتُ قَوْمِي فَأَحْتَسَبْتُ حَيَاتِي
رَمَوْنِي بَعْقِمٍ فِي الشَّبَابِ وَلِيَّتِي	عَقِمْتُ فَلَمْ أَجَزْ لَقَوْلِ عِدَاتِي
وَلَدْتُ وَلَمْ أجدُ لِعِرَاسِي	رِجَالًا وَأَكْفَاءً وَأَدْتُ بَنَاتِي
وَسِعَتْ كِتَابَ اللَّهِ لَفْظًا وَغَايَةً	وَمَا ضِفْتُ عَنْ آيٍ بِهِ وَعِظَاتٍ
فَكَيْفَ أَضِيقُ الْيَوْمَ عَنْ وَصْفِ آلَةٍ	وَتَنَسِيْقِ أَسْمَاءٍ مُخْتَرَعَاتٍ
أَنَا الْبَحْرُ فِي أَحْشَائِهِ الدَّرْكَامَنُ	فَهَلْ سَأَلُوا الْغَوَاصَ عَنْ صَدَفَاتِي
فِيَا وَيَحْكُمُ أَبْلَى وَتَبْلَى مَحَاسِنِي	وَمِنْكُمْ وَإِنْ عَزَّ الدَّوَاءُ أَسَاتِي
فَلَا تَكِلُونِي لِلزَّمَانِ فَإِنِّي	أَخَافُ عَلَيْكُمْ أَنْ تَحِينَ وَفَاتِي
أَرَى لِرِجَالِ الْغَرْبِ عِزًّا وَمَنْعَةً	وَكَمْ عَزَّ أَقْوَامٌ بَعِزُّ لُغَاتٍ
أَتَوْا أَهْلَهُمْ بِالْمُعْجَزَاتِ تَقْنُنًا	فِيَا لِيَتَكُمُ تَأْتُونَ بِالْكَلِمَاتِ
أُطْرِكُكُمْ مِنْ جَانِبِ الْغَرْبِ نَاعِبٌ	يُنَادِي بِوَادِي فِي رَبِيعِ حَيَاتِي

لهذا فهذه اللغة خالدة بخلود القرآن وقد فقه العرب الأوائل ذلك، فمنذ أن "بدأ اهتمامهم يتجه إلى المحافظة على القرآن الكريم- دستور العربية الخالد- فإذا به منطلق العقل العربي إلى دراسة نصوص اللغة، ومنتها، وقواعدها النحوية والصرفية، والصوتية والبلاغية، وإذا بالعلماء منذ عهد مبكر يبدؤون في اللمسات الأولى في العلوم العربية، استهدفا لخدمة النص القرآني الكريم " (شاهين، 1989، ص10) فخدمة اللغة خدمة للكتاب المنزل.

2.2. بلسان عربي مبين

يخبرنا القرآن في كثير من الآيات البينات الواضحات على أنه نزل بلسان عربي مبين إذ يقول الله تعالى: ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ٢٨﴾ [الزمر: 28]، وقال أيضاً: ﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ٣﴾ [فصلت: 3] فالدعوة إلى تعلم العربية يوصل إلى فهم القرآن، والوقوف على علم الكتاب الذي به التقوى والعلم الحقيقي.

بل يحثنا القرآن على نشر تعاليمه وتبليغها للناس قاطبة بلسان عربي مبين للحقائق وموضحاً للقضايا الأساسية التي بها فلاح الإنسان ونجاحه قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ٧﴾ [الشورى: 7] فالعقل كل العقل لمعاني القرآن لن يكون بلسان آخر، وإنما يكون بلسان عربي واضح ومبين، وفي هذا يقول الله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ٣﴾ [الزخرف: 3]، وفي قوله أيضاً: ﴿وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّنُذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ ١٢﴾ [الأحقاف: 12].

3.2. طرائق العرب في الإبانة

لهذا لما بحث العرب الأوائل في طرائق العرب في الإبانة بالبحث فيما خلفوه من شعر وحكمة وأمثال وخطب وغيرها وجدوا ثروة بلاغية عظيمة حتى قيل: "لو وجد الحكيم أرسطو في شعر اليونانيين ما يوجد في شعر العرب من كثرة الحكم والأمثال والاستدلالات واختلاف ضروب الإبداع في فنون الكلام ... لزاد على ما وضع من القوانين الشعرية" (القرطاجني، 1986، ص 68) والفنون الخطابية الشيء الكثير. وظل علماء العرب ينقبون في التراث البياني ويستخرجون كنوزه العظيمة التي زخرت بها المؤلفات الكثيرة التي امتلأت بها المكتبة التراثية انطلاقاً من الخطابي والرماني والباقلاني والجاحظ وعبد القاهر وغيرهم، لأن البلاغة العربية بحر زاخر لا يمكن استخراج صدقاته العظيمة والثمينة في وقت محدد بل "كيف يظن إنسان أن صناعة البلاغة يتأتى تحصيلها في الزمن القريب، وهي البحر الذي لم يصل أحد إلى نهايته مع استنفاد الأعمار". (القرطاجني، 1986، ص 88)

واستمر العمل متواصلاً على نفس الوتيرة منذ عصره ﷺ إلى حين وفاته على هذه السنن المستقيمة، وكذلك الصحابة ساروا على نفس المنهج الذي سلكه الرسول ﷺ، فكان اللسان العربي عندهم صحيحاً محروساً لا يتداخله الخلل ولا يتطرق إليه الزلل (ياقوت، 2003، ص 62)، ولا يشوبه اللحن.

الدافع الأساسي للنشاط المعرفي:

وكان الدافع الأساسي لهذا النشاط المعرفي والعلمي عاملان اثنان:

- 1 - العامل الديني: كان لابد من شرح وتفسير القرآن الكريم والحديث الشريف ليتمكن العرب والأعاجم من فهم النصوص الدينية، فاجتهد العلماء في شرح ألفاظ القرآن ومعانيها في مواضعها.

2-اللحن اللغوي: تفتت ظاهرة اللحن اللغوي بعد دخول الأعاجم وغير العرب وهو انحراف كلام العرب وقواعد النحو والصرف. (بلعيد، 1998، ص134) وقواعد البيان التي سار عليها العرب الخُص وتوارثوها، واستمر العلماء وفقا لهذا ينهجون نهجهم الذي وضعوهم لأنفسهم في خدمة لغة القرآن حتى وُضعت القواعد، وأُسست المدارس في شتى الفنون والمعارف، وعُرفت في ذلك مناطق تخصصت في فن من الفنون؛ حيث تمت أوليات الدراسة النحوية في مدينة البصرة، وشملت تلك الفترة التي تمتد من أبي الأسود إلى الخليل بن أحمد، وتلميذه سيبويه وكلاهما يُعدّ أنموذجا للثقافة العربية الجامعة (شاهين، 1989، ص11)، ويمثلان البداية الفعلية للنشاط العلمي الدؤوب.

3. دور الدراسات القرآنية في نمو الدرس البلاغي

انطلاقا من ذلك المنهج الذي رُسمت لبناته من أيام الرسول ﷺ، وبينت ملامحه في عهد الصحابة حتى قال ابن مسعود: "مَنْ أَرَادَ الْعِلْمَ فَلْيَتَوَرَّ الْقُرْآنَ، فَإِنَّ فِيهِ عِلْمَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ" (الطبراني، 9/ص146). ومن هنا سار البحث العلمي الجاد يؤسس لنفسه قواعد صارمة لا يحيد عنها قيد أنملة. واستقر في ذهن العلماء وأساطين البيان في شتى الأزمنة والعصور على أن "كتاب الله؛ لو نُزعت منه لفظة، ثم أُدير لسان العرب في أن يوجد أحسن منها لما وُجد، ونحن تبين لنا البراعة في أكثره، ويخفى علينا وجهها في مواضع؛ لقصورنا عن مرتبة العرب. يومئذ. في سلامة الذوق، وجودة القريحة، وميزر الكلام". (ابن عطية، 1395، ج1/ص39) ووضوح البيان.

بل ذهب بهم البحث إلى أن "للحرف/الصوت المفرد في القرآن الكريم تفرُّدٌ وتميُّزٌ، من حيث المناسبة بين صوت الحرف المفرد ومعنى الكلمة التي هو جزءٌ منها، بل يمتدُّ هذا التميُّز والتفرُّد إلى توظيف الحركة المصاحبة للحرف في بيان المعنى المراد على نحو متفرِّد". (داود، دت، ص12) والأمثلة على ذلك كثيرة. فلو ضربنا مثالا لذلك التفرد فإن لفظة (نضيد) في قوله تعالى: ﴿وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ ۖ﴾ [ق:10]، "ووقف على حرف الدال، استشعر السامع بهذا المدِّ الهابط (الياء) خلاف ما استشعره بذلك المدِّ الصاعد الذي قَبْلَهُ في (بَاسِقَاتٍ)؛ إذ يستشعر بسمعه قبل بصره هذا التنضيد الذي في الطَّلْع، وقد غُطِّي بغطائه الرباني الجميل ذي الرائحة الذكية. ومن إichاء الأصوات المفردة في تعبير القرآن: إichاء (الهمزة) وإichاء (الهاء) في سياقيهما؛ إذ ورد كلُّ منهما في سياق مغاير دلاليًا لسياق الآخر، وهذا يعود إلى تغاير صفة كل منهما من الناحية الصوتية، وإنْ كانا من مخرج واحد هو الحنجرة؛ إذ الهمزة صوت شديد انفجاري، على حين عُدَّت الهاء من الأصوات الرخوة المهموسة الضعيفة" (داود، دت، ص14) وهذا غيض من فيض.

اختيار الصوت

إذ نجد أن العربي لم يكن يختار الصوت دون أن تكون له دلالة في الواقع فإننا " نجد صوتي (الصاد) في (صعد) و(السين) في (سعد) [مثلاً] قد اتفقا في خصائص وصفات معينة، واختلفا في أخرى. فممّا اتفقا فيه أنّ كلاّ منهما (صامت، أسلي، صفيري، ومهموس، ورخو)، واختلفا في أن (الصاد) صوت مطبق، مفخم، والسين صوت منفتح مرقق ". (أنيس، 1975، ص 75-77).

فلو دققنا النظر في المعنى لوجدنا أنّ (صعد) تعني «الذهاب إلى مكان عالٍ، وتدل (سعد) على اليُمن، وهي نقيض النُحس" (ابن منظور، 1994، 3/ ص 252 و 3/ ص 213)، فهذا برهان قاطع على أن العربي لم يكن يختار الحروف عشوائياً وإنما يختارها وفق مدلولها الواقعي، فهذا يجعل اللسان العربي ثرياً منقطع النظير، من هنا فإن اللغة العربية هي لغة حياة.

وهذا يسوقنا إلى الحديث عن البلاغة التي اتصفت بها اللغة العربية ولبست لبوسها الواضح المانع في غير تكلف أو مجج، لأن أساس البلاغة أن يصل معنك إلى السامع في غير تكرار أو تلوّك، ولهذا فإن "عمود هذه البلاغة التي تجمع لها هذه الصفات هو وضع كلّ نوع من الألفاظ التي تشتمل عليها فصول الكلام موضعه الأخصّ الأشكل به الذي إذا أبدل مكانه غيره جاء منه إمّا تبدل المعنى الذي يكون منه فساد الكلام، وإمّا ذهب الرونق الذي يكون معه سقوط البلاغة" (الخطابي، 1387، ص 29). نزولها إلى منزلة الحضيض.

هدف الدراسات القرآنية:

ما يمكن أن نخلص إليه في نهاية هذا المبحث هو أن الدراسات القرآنية كان هدفها الوقوف على سر تفوق كلام الله على غيره من كلام البشر، وهو نفس هدف البلاغة العربية وفي هذا يقول ابن خلدون: "واعلم أنّ ثمرة هذا الفن، إنما هي فهم الإعجاز من القرآن". (ابن خلدون، 1984، ص 521).

شكل 1 وفي هذا المخطط توضيح وإجمال لذلك:



المصدر: مناع القطان، مباحث في علوم القرآن

4. مراحل نمو البلاغة

ولكي نقف على مراحل نمو البلاغة يجدر بنا أن نشير إلى أنّ هناك عدة اتجاهات معاصرة في دراسة البلاغة العربية نذكر منها:



ومنها اخترنا الاتجاه الثاني حيث ركّزنا على المنجز العلمي في مجال الدراسات القرآنية ودورها في نمو البلاغة العربية مع عبد القاهر الجرجاني.

5. دور عبد القاهر في نمو الدرس البلاغي من خلال كتابيه (أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز):

عمد عبد القاهر الجرجاني، وهو "واضع علم البلاغة" (الجرجاني، 2002، ص 06)، إلى تبين سر تفوق كلام على كلام، وقول على قول في كتابيه على التوالي حيث عكف في أسرار البلاغة على تبين أسرار البيان العربي، ممهدا لذلك بتوضيح دور الكلام الذي ميّز الله به الإنسان عن سائر المخلوقات.

وفي ذلك أعطى أهمية لوظيفة الكلام عند الإنسان في شتى مجالات حياته، مركزا على دوره في صقل معارف الإنسان وتقلبه في ميادين العلم لأن الكلام هو الذي "يعطي العلوم منازلها، يبين مراتبها، ويكشف صورها، ويجني صنوف ثمرها، ويبرز مكنون ضمائرهما، وبه أبان الله تعالى الإنسان على سائر الحيوان". (الجرجاني، 2002، ص 13)، ميزه عن سائر مخلوقاته لأن اللغة هي وعاء الأمة.

لذلك إذا أصيب الإنسان بعِي في بيانه وعطب في لسانه ولم يستطع أن يبين عن مكنونات نفسه "لوقع الحي الحساس في مرتبة الجماد، وكان الإدراك كالذي ينافيه من الأضداد، ولبقيت القلوب مقفلة على ودائعها" (الجرجاني، 2002، ص 13)، ومن هذا المنطلق ميّز الله الإنسان حيث قال تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۚ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ۖ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ۖ﴾ [الرحمن: 1-4] حيث ربط سبحانه تعليم القرآن بخلق الإنسان، وتعليمه البيان دلالة واضحة على أن بالبيان نستطيع فهم القرآن، وكأن الله خلقنا من أجل ذلك.

وعليه ففهم اللسان العربي طريق مؤدي إلى فهم القرآن لأنه نزل بلسان عربي مبين، قال الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ [١١٣ طه: 113] بل هو يوضح توضيحا لا يدع مجالا للريب ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ﴾ [الرعد: 37].

تدلنا كل هذه الآيات وغيرها، على ضرورة معرفة أسرار البلاغة العربية لأنه نزل على طرائق العرب في البيان وهذا ما يشفع لعبد القاهر سر تأليف كتابه أسرار البلاغة وتبيان خصائص اللغة العربية وأسرارها. وإذ ركز أيما تركيز على تبيان سر البلاغة العربية الكامن في "أمر يقع من المرء في فؤاده، وفضل يقدحه العقل من زناده" (الجرجاني، 2002، ص15) هذا هو سر الحقيقي للبلاغة العربية. وأرسي قاعدة في ذلك على أن القائد للبيان في البلاغة العربية هي المعاني وليست الألفاظ، كما شاع عند الناس وخاصة أهل بعض العلم، لأنك "لا تجد تجنيسا مقبولا، ولا سجعا حسنا، حتى يكون المعنى هو الذي طلبه واستدعاه وساق نحوه وحتى تجده لا تبتغي به بدلا، ولا تجد عنه حولا" (الجرجاني، 2002، ص18)، لأننا إذا رمنا البلاغة في اللفظ حدنا عن الطريق وسلطنا مسلكا يبعدنا عن الهدف الذي نرجوه.

ولهذا فإن الطريق الأسلم في البيان العربي، اللسان الإنساني بصفة عامة، هو أن تجعل الإفصاح عن مكنونات نفسك تقوده المعاني فإنك "لن تجد أيمن طائرا، وأحسن أولا و آخرا، وأهدى إلى الإحسان، وأجلب للاستحسان، من أن ترسل المعاني على سجيتهما، وتدعها تطلب لأنفسها الألفاظ" (الجرجاني، 2002، ص21)، فهي تتخير لباسها التي تظهر به ووشمها الذي تزين به.

فليس للتكلف في البلاغة وظيفة إلا أن يجعل الكلام ممجوجا، والبيان ممقوتا فكم من شاعر أسقطه التكلف في الهاوية، وكم من خطيب وقع في الغاوية لهذا ركز عبد القاهر في كتابيه على ضرورة تصحيح المفاهيم عن سر البلاغة المتمثل في الكلام المقبول والمؤثر هو الذي تقوده المعاني وما على المتكلم إلا أن يجد المعاني، ويتركها تختار ألفاظها التي تناسبها. ولهذا وجدناه في كتابه يركز على ضرورة التدقيق في سر البلاغة.

6. أسرار البلاغة وخدمة اللغة العربية

يعتبر كتاب أسرار البلاغة المفتاح الأول في فهم سر تفوق كلام على كلام، وعلى هذا بنى عبد القادر كتابه على الخطة خادمة لفكرته التي أشرنا إليها:
كتاب أسرار البلاغة (الجرجاني، 2002)

في قسمة التجنيس وتنويعه	
في الاستعارة وتقسيماتها	
في الاستعارة المتحدة في الجنس والمختلفة في النوع	
اعتراض على تنزيل الوجوه منزلة العدم وعكسه ليس من حديث	
التشبيه للاشتراك في نفس الصفة وفي مقتضياتها	
في وجوه الشبه المنتزع من شيء أو أشياء	
في حال انتزاع الشبه من الوصف	
في مواقع التمثيل والتأثير	
الفرق بينا لتمثيل الدقيق والتعقيد	
هذا فن آخر من القول بجمع التشبيه والتمثيل جميعا	
الجمع بين الشكل وهيئة الحركة في التشبيه	
في الأخذ والسرقة وما في ذلك من تعليل وضروب الحقيقة والتخييل	
هذا فن آخر غير ما تقدم في الموازنة بين التشبيه والتمثيل	
الفرق بين الاستعارة والتمثيل	
في وقع مستعارا بحسب الحس وهو ليس كذلك	
في الأخذ والسرقة وما في ذلك من تعليل وضروب الحقيقة والتخييل	
بين المعنى الحقيقي والتخييل	
هذا نوع آخر في التعليل	
في تخييل بغير تعليل	
في الفرق بين التشبيه والاستعارة	
في الاتفاق في الأخذ والسرقة والاستمداد والاستعانة	
في حدي الحقيقة والمجاز	
في المجاز العقلي والمجاز اللغوي والفرق بينهما	
منه فيما قيل في عن استعارة وليس كذلك بل هو حقيقة	
هذا كلام في ذكر المجاز وفي بيان معناه وحقيقته	
في تقسيم إلى لغوي وعقلي	
في الحذف والزيادة وهل هما مجاز أم لا	

أسرار البلاغة
فائحة الكلاب
27 فصل

ومن هنا نفهم الهدف من تأليف الكتاب وهو الوقوف على أسرار البلاغة العربية، ولهذا نراه، ولكي يحكم حكما منصفا بعيدا عن التسرع والخابط خبط عشواء، يشارك القارئ في بناء فكرة الكتاب فيقول له: "راجع فكرتك، واشحذ بصيرتك، وأحسن التأمل، ودع عنك التجوز في الرأي، ثم انظر، هل تجد لاستحسانهم وحمدهم وثنائهم ومدحهم منصرفا إلا إلى استعارة وقعت موقعها، وأصاب غرضها، أو حسن ترتيب تكامل معه البيان، حتى وصل المعنى إلى القلب، مع وصول اللفظ إلى السمع، واستقر في

الفهم مع وقوع العبارة في الأذن". (الجرجاني، 2002، ص 27). هذه خلاصة ما يمكن أن يعلق في ذهن القارئ حول سر البلاغة العربية.

7. دلائل الإعجاز مزية لغة القرآن الكريم

انتقل بنا عبد القاهر الجرجاني في دلائل الإعجاز نقلة أخرى لتبيان المزية التي جعلت لغة القرآن تقهر القوى والقدر، رغم أن العرب هو أهل البيان ونزل بلغتهم إلا أنهم وقفوا حيالها واجمين، "لم يدع في نفس بليغ منهم - ولو حك بيافوخه السماء - موضع طمع حتى خرس الألسن عن أن تدعي وتقول، وخذيت القروم فلم تملك أن تقول" (الجرجاني، 2004، ص 39). ووقفت متدبرة في أسرار إعجازه.

رغم أننا نعلم بأن القرآن نزل نزولاً مفارقاً حسب الأحداث إلا أنه كان يتحداهم أن يأتيوا بمثله، فالنبي ﷺ "كان هذا القرآن ينزل عليه منجماً، وكان الذي نزل عليه يومئذ قليلاً كما تعلم وكان هذا القليل من التنزيل هو برهانه الفرد على نبوته، وإذن، فقليل ما أوحى إليه من آيات يومئذ، وهو على قلته، وقلة ما فيه من المعاني التي تنامت وتجمعت في القرآن جملة، كما نقرؤه اليوم منطوياً على دليل مُستبين قاهر، يحكم له بأنه ليس من كلام البشر". (ابن نبي، 1405، ص 28/27)، وهذا يزيد في عجزهم على أن يأتيوا بمثله.

ويؤكد من جهة ثانية "على أن تاليه عليهم، وهو بشر مثلهم نبي من عند الله مرسل، فإذا صحَّ هذا - وهو صحيح لا ريب فيه - ثبت ما قلناه أولاً من أن الآيات القليلة من القرآن، ثم الآيات الكثيرة، ثم القرآن كله أي ذلك كان في تلاوته على سامعه من العرب الدليل الذي يطالبه بأن يقطع بأن الكلام مُفارقٌ لجنس كلام البشر، وذلك من وجه واحد، وهو وجه البيان والنظم". (ابن نبي، 1405، ص 28/27) الذي ركز عليه عبد القاهر.

ومن أجل أن يبين المزية بنى عبد القاهر كتاب دلائل الإعجاز (الجرجاني، 2004). وفق الخطة الآتية:

1. مقدمة.
2. المدخل إلى دلائل الإعجاز من إملاء عبد القاهر.
3. كتاب دلائل الإعجاز.
4. خطبة الكتاب.
5. في فضل العلم وعلم البيان وحديث الشعر روايته..
6. سبب تأليف الكتاب والحديث عن الفصاحة والبلاغة ودليل والإعجاز وأن النظم توحي معاني النحو والحديث عن فنون البلاغة من كناية واستعارة وقضية المزية.
7. الحديث عن التقديم والتأخير والاستفهام والنفي.
8. ودستور في التقديم والتأخير في الاستفهام والخبر.
9. قول في الحذف وضرب أمثلة في الباب.
10. فصل في القول على فروق في الخبر وكل ما تعلق بذلك مع ضرب أمثلة لذلك.

11. فصل في الذي خصوصاً وفيه أسرار جمة.
12. فصل في فروق الحال وكل ما يتعلق بذلك.
13. فصل في القول في الفصل والوصل.
14. فصول شتى في أمر اللفظ والنظم والحديث أقوال العلماء في البلاغة وكلام الجاحظ.
15. فصل المزية للمعنى المقتبس من النظم.
16. فصل الكلام ضربان والمعنى ومعنى المعنى. قضايا ذلك بالتفصيل.
17. فصل في المزية تكون ويجب بها الفضل، إذا احتمل الكلام في ظاهره وجهاً آخر تنبو عن النفس مع شرح جملة من الآيات.
18. فصل هذا فصل في المجاز مع تفسير قوله تعالى: «إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب...»
19. فصل بيان دقيق في الكناية وإثبات الصفة عن طريقها، وأمثلة ذلك.
20. فصل في إن ومواقعها.
21. القصر والاختصاص وفصل في مسائل إنما مع الفرق بين ما وإلا.
22. فصل وبيان وإزالة شبهة في شأن النظم والترتيب وهي الحكاية.
23. فصل بيان الجهة التي يختص منها الشعر بقائله هي النظم والترتيب وتوخي معاني النحو.
24. فصل تمام القول في النظم وأنه توخي معاني النحو، والدليل على ذلك.
25. تحرير القول في إعجاز القرآن، وفي الفصاحة والبلاغة وإبطال الصرفية وبيان أن النظم والاستعارة هما مناطا الإعجاز فصل في الفصاحة بين المعنى واللفظ وغيرها.
26. الكلام الفصيح قسمان: قسم مزيته في اللفظ، قسم مزيته في النظم.
27. القسم الأول الكنية والاستعارة والتمثيل على حد الاستعارة.
28. القسم الثاني وهو الذي تكون فصاحته في النظم والرد على المعتزلة في اللفظ.
29. فصل هذا تقرير يصلح لأن يحفظ للمناظرة (مناقشة الاحتذاء والابتداء والنسق في إعجاز القرآن (...)
30. خاتمة كتاب دلائل الإعجاز وتمام نسخة أسعد أفندي.

ويلاحظ القارئ لكتاب دلائل الإعجاز أن عبد القاهر عمل جاهداً على أن القرآن مكان لا يعتريه التبدل ولا التحريف ولا التغيير لخصائص فيه حيث: "تألفت كلماته من حروف لو سقط واحد منها، أو أبدل بغيره، أو أقحم معه آخر، لكان ذلك خلافاً بيننا في نسق الوزن، وجرس النغمة، وفي حس السمع وذوق اللسان، وفي انسجام العبارة وبراعة المخرج، وتساند الحروف وإفضاء بعضها إلى بعض ولرأيت لذلك هجنة في السمع، كالذي تنكره من كل مرئي لم تقع أجزاءه على ترتيبها ولم تتفق على طبقاتها، وخرج بعضها

طولا، وخرج بعضها عرضا". (الرافعي، 1973، ص105)، ولكن القرآن يهرك منظره ويدهشك بيانه ويأسرك منطقته.

ولذلك إذا تأملنا في أصواته وانسجامها لوصلنا إلى أن القرآن "غريال للأصوات، ومصفاة لها أخرجت منها ما ينبو عنه السمع وما يثقل على اللسان، والناظر في هذا الكتاب الكريم يجد بين دفتيه أمثلة ناصعة للنقاء الصوتي والسلاسة وتجسيد المعنى عن طريق الصوت بصورة متميزة، بل متفردة لا نجد لها مثيلا في أرقى مستويات الفصاحة اللغوية لهذه اللغة". (داود، دت، ص24). الكريمة المعطاء.

من هنا لا نعجب إذا كان العرب الأوائل وهم أولو فصاحة وبيان وقفوا حيارى مشدوهين أمام "مزايا ظهرت لهم في نظمه وخصائص صادفوها في سياق لفظه وبدائع راعتهم من مبادئ آيه ومقاطعها ومجاري ألفاظها ومواقعها، وفي مضرب كلِّ مثلٍ ومساق كلِّ خبرٍ وصورة كلِّ عِظَةٍ وتنبيه وإعلام وتذكيرٍ وترغيبٍ وترهيبٍ، ومع كلِّ حجة وبرهان وصفة وتبيان،" (الجرجاني، 2004، ص39). وجدوا انسجاما واتساقا.

وقد وجدنا الباقلائي يوضح سر الإعجاز بعد أن "أكثر الناس الكلام في هذا الباب قديما وحديثا، وذهبوا فيه كل مذهب من القول؛ وما وجدناهم، بعد، صدروا عن رأيٍ؛ وذلك لتعذر معرفة وجه الإعجاز في القرآن، ومعرفة الأمر في الوقوف على كلفيته" (الباقلائي، دت، ص13). بل دققوا النظر فيه فيهرهم "أنهم تأملوه سورة سورة، وعُشرا عشرا، وآية آية، فلم يجدوا في الجميع كلمة ينبو بها مكانها ولفظة ينكر شأنها أو يرى أن غيرها أصلح هناك أو أشبه أو أخرى وأخلق بل وجدوا اتساقا بهر العقول، وأعجز الجمهور، ونظاما، والتثاما، وإتقاناً، وإحكاماً". (الجرجاني، 2004، ص39). زادهم تعلقا به وحبا له.

ولهذا كان دور عبد القاهر، وهو يدرس البيان القرآني، أن يركز على دراسة المزية التي جعلته يهرهم في نظمه وتماسكه في سبكه، بتبيان "أمر المعاني كيف تختلف، وتتفق، ومن أين تجتمع، وتفترق، وأفصل أجناسها وأنواعها" (الجرجاني، 2002، ص26)، وكل مزاياها وخصائصها.

بل وضع لنا ذلك صراحة في كتابه وهو يخدم لغة القرآن فهو يريد أن يبرز "خاصَّها ومُشاعها، ويبين أحوالها في كرم منصبها من العقل، وفي تمكُّنها في نصابه، وقرب رحمها منه، أو بعدها -حين تُنسب - عنه، وكونها كالحليف الجاري مجرى النسب، أو الزَّئيم المُلصِّق بالقوم، لا يقبلونه، ولا يمتعضون له، ولا يذُبُّون عنه" (الجرجاني، 2002، ص26) فهنا تظهر لنا جليا دقة بحث عبد القاهر في بلاغة الخادمة للغة القرآن الكريم.

لا يكفي، كما يرى عبد القاهر، في علم الفصاحة "أن تنصب لها قياسا ما وأن تصفها وصفا مجملا، وتقول فيها قولاً مرسلاً، بل لا تكون من معرفتها في شيء حتى تفصل القول، وتُحصِّل، وتضع اليد على الخصائص التي تعرض في نظم الكلم، وتعدّها واحدة واحدة وتسميها شيئاً شيئاً، وتكون معرفتك معرفة الصنع الحاذق الذي يعلم علم كل خيط من الأبريسم الذي في الديباج، وكل قطعة من القطع المنجورة في

الباب المقطع، وكل آجرة من الآجر الذي في البناء البديع". (الجرجاني، 2004، ص 37). ومن هنا كان حكمك مبني على يقين وعلى دراسة ودراية.

ونجد أن عبد القاهر في كتابه تعمق في دراسة أسرار البلاغة القرآنية، ووقف على دقائقها، ونثر فنونها على بساط البحث وميز دور العطف في النظم حتى قال فيه: "اعلم أنه ما من علم من علوم البلاغة أنت تقول فيه: إنه خفي غامض، ودقيق صعب، إلا وعلم هذا الباب أغمض وأخفى وأدق وأصعب" (الجرجاني، 2004، ص 158). ليؤكد لك أن علوم البلاغة تركز على حسن السبك وبراعة الانسجام وروعة الاتساق.

ويخاطب القارئ المتمرس ويدعوه إلى التعمق أكثر قائلا: «ما أظن بك أيها القارئ لكتابنا إن كنت وفيته حقّه من النظر، وتدبرته حقّ التدبر، إلا أنك قد علمت علماً أبى أن يكون للشك فيه نصيب، وللتوقف نحوك مذهب أن ليس النظم شيئاً إلا توخي معاني النحو وأحكامه ووجوهه وفروقه فيما بين معاني الكلم...» (الجرجاني، 2004، ص 335/336).

ثم يصل بنا في كتابه على أنه "لا بُدّ لكلّ كلام تستحسنه ولفظ تستجيده من أن يكون لاستحسنك ذلك جهة معلومة وعلة معقولة، وأن يكون لنا إلى العبارة عن ذاك سبيل وعلى صحة ما ادعيناه من ذلك دليل، وهو باب من العلم إذا أنت فتحته اطلعت منه على فوائد جلية ومعان شريفة". (الجرجاني، 2004، ص 41)، لا تدرك إلا بالروية والتدبر. وعلى هذا "فإن الكلام يقوم على أشياء ثلاثة: لفظ حامل، ومعنى قائم به، ورباط لهما ناظم". (الخطابي، 1387، ص 24).

وما يجدر بنا الإشارة إليه في نهاية المطاف على أن عبد القاهر تحدث عن البلاغة ببلاغة عالية وكأنه يضع القاعدة ويطبق لها في آن واحد لأنك إذا أعدت قراءة ما كتبه في هذا الفن ستجدك تصغي "إلى وقع أجراس حروفها وحركتها، وما أقامها عليه من التعادل الصوتي الذي يملأ الأذن، فينفذ في القلب، فيشغله بما حمله إليه ذلك الإيقاع الفخم من المعاني، وكيف أن عبد القاهر يوظف ذلك إيصالاً لمراداته ومعانيه ومغازيه إلى قلبك، فيبعثه على أن يستغرق في لذة الفهم التي هي خصيصة الصفوة من أبناء آدم - عليه السلام، فمن ذاق عرف ومن عرف عشق السعي في التي هي أهدى وأقوم" (سعد، 1424، ص 30).

كل هذه الدراسة التي قام بها عبد القاهر في كتابيه خادما بذلك اللغة العربية التي نزل بها القرآن الكريم مبينا مزية لغة القرآن، وسر قهر القوى والقدر؛ جعل بذلك البلاغة تقف على قدميها كعلم مستقل واضح المعالم بين الأهداف يهتم بتبيان سر أن يصل الكلام إلى أذن السامع بدون مشقة أو معاناة. ثم ما جاء بعده من دراسات بلاغية فإنما هي شارحة لما كتبه عبد القاهر في كتابيه: (أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز)، أو مطبقة لما وضعه من قواعد مثلما فعل الزمخشري في تفسيره الكشف.

8. خاتمة

نختم هذا البحث ببيان أن عبد القاهر الجرجاني استطاع من خلال كتابيه أن يجعل البلاغة تقف على سوقها، كعلم ثمرته أن يقف على سر إعجاز البيان القرآني مبينا أن المزية تكمن في النظم، وفي تشابك المعاني بعضها ببعض. حتى قال: "ذاك أنه ليس من عاقل يفتح عين قلبه، إلا وهو يعلم ضرورة أن المعنى في ضم بعضها إلى بعض، وتعليق بعضها ببعض، وجعل بعضها بسبب من بعض، لا أن ينطق بعضها في أثر بعض، من غير أن يكون فيما بينها تعلّق ويعلم كذلك ضرورة إذا فكّر، أن التعلق فيما بين معانيها، لا فيما بينها أنفسها" (الجرجاني، 2004، ص466).

وهنا يخلص البحث إلى النقاط الآتية:

- الدراسات القرآنية مهدت الطريق لنمو البلاغة لأنهما يلتقيان في هدف واحد.
- خدمة اللغة العربية هي خدمة لكتاب الله تعالى.
- البلاغة عند عبد القاهر عرفت نضجا ونموا.
- كل الدراسات البلاغية التي أتت بعد عبد القاهر اقتبست منه وتأثرت به.

. قائمة المراجع

القرآن الكريم برواية حفص عن عاصم.

1. إبراهيم أنيس، (1975)، الأصوات اللغوية، مكتبة النهضة، مصر.
2. ابن خلدون عبد الرحمن، (1984)، المقدمة، مكتبة ودار المدينة المنورة للنشر والتوزيع، دار التونسية للنشر.
3. ابن عطية، (1395)، المحرر الوجيز، ط: المجلس العلمي بفاس، تونس.
4. ابن منظور الإفريقي (1414هـ- 1994م)، أبو الفضل جمال الدين بن مّجّد، لسان العرب، دار صادر، ط3، بيروت.
5. حازم القرطاجني، (1986م)، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق: مّجّد الحبيب بن الخوجة، عن دار الغرب الإسلامي، ط3، تونس.
6. الخطابي (1387م)، بيان إعجاز القرآن ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن - تح: مّجّد خلف الله وزغلول سلام، دار المعارف بمصر.
7. حافظ إبراهيم، (1948م)، الديوان، ضبطه وصحّحه وشرّحه مجموعة من الكتاب، ط3، دار المعارف المصرية العمومية.
8. صالح بلعيد، (1998)، الصرف والنحو، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، الجزائر.
9. الطبراني في " الكبير " (9 / 146)، رقم (8665) من طريق زهير، عن أبي إسحاق، عن مرة، عن ابن مسعود، وذكره الهيثمي في " المجمع " (7 / 168)، وقال: رواه الطبراني بأسانيد، ورجال أحدها

- رجال الصحيح. وأخرجه عبد الله بن أحمد في الزهد رقم (532) والطبراني أيضا (9 / 146)، رقم (8666) من طريق شعبة، عن أبي إسحاق، عن مرة، عن عبد الله.
10. عبد الصبور شاهين، (1989م)، في علم اللغة العام، ط6، مؤسسة الرسالة بيروت لبنان.
11. عبد القاهر الجرجاني، (2002م)، أسرار البلاغة في علم البيان، تح: محمد رشيد رضا، ط1، دار المعرفة، بيروت لبنان.
12. عبد القاهر الجرجاني، (2004م)، دلائل الإعجاز، تح: محمود محمد شاكر، الطبعة الخامسة، الناشر مكتبة الخانجي بالقاهرة مصر.
13. عبد القاهر الجرجاني، الرسالة الشافية ملحقه بدلائل الإعجاز. نفس المعلومات السابقة.
14. مالك بن نبي، (1405)، الظاهرة القرآنية، تقديم الكتاب بعنوان: (فصل في إعجاز القرآن) بقلم محمود شاكر، ط: دار الفكر، دمشق.
15. محمد محمد داود، (دت)، الإعجاز البياني في القرآن الكريم، في ضوء العلوم اللغوية الحديثة، كتاب الهلال سلسلة شهرية تصدر عن مؤسسة دار الهلال، مصر.
16. محمود توفيق محمد سعد، (1424هـ)، العزف على أنوار الذِّكر معالم الطريق إلى فقه المعنى القرآني في سياق السورة، ط1، القاهرة مصر.
17. محمود سليمان ياقوت، (2003)، منهج البحث اللغوي، دار المعرفة الإسكندرية.
18. مصطفى صادق الرافعي، (1973)، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ط9، بيروت، دار الكتاب العربي.
19. مناع القطان، (دت)، مباحث في علوم القرآن، ط7 مكتبة وهبة، القاهرة.